

علو الهمة في خدمة الدين والوطن

٢٤ جمادى الأولى ١٤٣٧ هـ الموافق ٣/٤ / ٢٠١٦ م

أولاً: العناصر:

١. علو الهمة من معالي الأمور.
٢. فوائد علو الهمة.
٣. أثر علو الهمة في إصلاح المجتمع.
٤. دعوة الإسلام إلى استثمار الهمم في البناء والتعمير.
٥. نماذج لبعض أصحاب الهمم العالية.

ثانياً: الأدلة:

الأدلة من القرآن الكريم:

١. يقول الله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١٣٣].
٢. ويقول تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة: ١٠٥].
٣. ويقول تعالى: {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [المائدة: ٤٨].
٤. ويقول تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد: ٢١].
٥. ويقول تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: ٩٠].
٦. ويقول تعالى: {وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء: ١٢٨].
٧. ويقول تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلًّا نُمِدُّ هُوَآءًا وَهَوَآءًا مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} [الإسراء: ١٩-٢١].

الأدلة من السنة والآثار:

- ١- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ....) (صحيح مسلم).

٢- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (... إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ) (صحيح البخاري).

٣- وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ وَمَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ وَيَبْغُضُ سَفْسَافَهَا) (السنن الكبرى للبيهقي).

٤- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ) (سنن الترمذي).

٥- وعن ربيعة بن كعب الأسلمي (رضي الله عنه) قال: كنت أبيت مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأتيتُه بوضوئِهِ وَحَاجَتِهِ ، فَقَالَ لِي : (سَلْ) . فَقُلْتُ : أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ . قَالَ : (أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ) . قُلْتُ : هُوَ ذَاكَ . قَالَ : (فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ) (رواه مسلم).

٦- وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ (رضي الله عنه) عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه) يَقُولُ: " أَمَرْنَا رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَنْ نَتَّصِدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالًا ، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا ، قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟) قُلْتُ: مِثْلَهُ ، وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ: (يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟) قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، قُلْتُ: لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا " . (رواه الترمذي).

٧- وعن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) أنه قال: (لَوْ أَعْلَمَ رَجُلًا أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهِ مِثِّي تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ لِأَتَيْتُهُ) (المعجم الكبير للطبراني).

ثَالِثًا: الْمَوْضُوعُ:

إن من محاسن الأخلاق وطيب الصفات التي حثَّ عليها ديننا الإسلامي الحنيف " علوُّ الهمة وقوة العزيمة " ، فهي سلم الرقي إلى الكمال في كل أبواب الخير ، من تحلى بها فاز برفع الدرجات في الدنيا والآخرة ، لذا دعانا إليها ديننا الحنيف ، قال تعالى: { وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ } [آل عمران: ١٣٣] ، وعن ربيعة بن كعب الأسلمي قال: كنت أبيت مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأتيتُه بوضوئِهِ وَحَاجَتِهِ ، فَقَالَ لِي : (سَلْ) . فَقُلْتُ : أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ . قَالَ : (أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ) . قُلْتُ : هُوَ ذَاكَ . قَالَ : (فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ) (رواه مسلم) ، فما وصل السابقون إلى ما وصلوا إليه إلا بعلوِّ هممهم وقوة عزائمهم ، لذلك فإن الأمة اليوم في أمس الحاجة إلى المخلصين من أبنائها الذين

يواصلون الليل بالنهار والسير بالسرى ، يقومون على البذل والعطاء في سبيل ارتفاع شأن أمتهم وتقدم أوطانهم ، ويغيرون مجرى الحياة بعلو همتهم وقوة عزيمتهم .
ولله درُّ القائل :

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ ... وتأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ
فتعظمُ في عينِ الصَّغيرِ صغارُها ... وتصغرُ في عينِ العظيمِ العظائمُ

إن عظيم الهمة لا يرضى بالمرتبة السفلى أو المرتبة المتوسطة من معالي الأمور ، ولا تهدأ نفسه إلا بالمنزلة العالية ، بل تتحدى همته ما يراه مستحيلاً ، وينجز ما ينوء به أولو القوة ، ويقتحم الصعاب والأهوال ، وجود بالنفس والنفيس في سبيل تحصيل غايته ، وتحقيق بغيته ، لأنه يعلم أن المكارم منوطة بالمكاره ، وأن المصالح والخيرات ، واللذات والكمالات لا يُتوصل إليها إلا بالجهد والمشقة ، يقول أبو تمام :

بصُرَّتْ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا ** ثُنَالُ إِلَّا عَلَى جَسْرِ مِنَ التَّعَبِ

ولولا الهمم العالية ما تقدمت الأمم ، ولا اخترعت المخترعات ، ولا ابتكرت الآلات ، ولا تقدمت البشرية ، فكيف كان يمكن أن يصل إلينا الإسلام لولا رجال جاهدوا وارتفعت همتهم وعلت عزيمتهم فاجتازوا العقبات وتخطوا الصعاب وتكبدوا المشاق حتى نشروا الخير في كل مكان؟! كيف كان يمكن أن يصل إلينا العلم والدين لولا أئمة علت همتهم فواصلوا الليل بالنهار يجمعون أطراف العلوم؟!

ولقد جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ما يحث المؤمنين على رفع الهمة وارتداد معالي الأمور ، والتسابق في الخيرات ، والتحذير من سقوط الهمة والرضا بالدون .

فها هو القرآن الكريم يثني على أصحاب الهمم العالية وعلى رأسهم الأنبياء (عليهم السلام) وفي مقدمتهم نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) حيث تجلت هممهم العالية في مثابرتهم ودعوتهم إلى الله عز وجل ، قال تعالى : { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ } [الأحقاف: ٣٥] .

وكذلك دعانا القرآن الكريم - أيضاً - إلى الهمة العالية والسعي نحو الأفضل ، والتسابق في الخيرات ، يقول تعالى : { .. فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيَبْئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [المائدة: ٤٨] . وقال تعالى : { سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } [الحديد: ٢١] . ويقول تعالى : { إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } [الأنبياء: ٩٠] .

إن الله (عز وجل) يحب أصحاب العزائم القوية والهمم العالية ويعينهم ويوفقهم ، ويُبغض أصحاب الهمم الضعيفة الذين يكتفون من كل شيء بأقله ، فعن سهل بن سعد (رضي الله عنه) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «إِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكِرْمَ وَمَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ وَيَبْغُضُ سَفَافَهَا». وقد أثر عن الفاروق عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه قال : «لَا تُصَعِّرَنَّ هِمَّتَكُمْ فَإِنِّي لَمَ أَرَأَقْعَدَ عَنِ الْمَكْرُمَاتِ مِنْ صَعْرِ الْهِمَمِ» [أدب الدنيا والدين للماوردي].

إن عظيم الهممة لا يرضى بالمرتبة السفلى أو المرتبة المتوسطة من معالي الأمور ، ولا يهدأ إلا حين يضع نفسه في أسمى منزلة وأقصى غاية ، ويعبر عن هذا المعنى النابغة الجعدي بقوله:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا * وإنا لنبغي فوق ذلك مظهرا

ويقول أبو فراس الحمداني :

وَنَحْنُ أَنَاسٌ لَا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا * لَنَا الصِّدْرُ دُونَ الْعَالَمِينَ أَوْ الْقَبْرِ

فعلو الهممة دليل على كمال الرجولة وكمال المروءة ، وهو خلق يوصل إلى محبة الله ومحبة الناس ، ويحقق الرفاهية والسعادة للأفراد والشعوب . ويثمر السعادة في الدنيا والآخرة.

وفي السنة النبوية تربية للمؤمنين على السعي نحو الكمال وبلوغ القمم ومحاولة الوصول إلى الأفضل والأحسن ، ففي الصلاة : يوم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فعن أبي مسعود الأنصاري (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (يَوْمُ الْقَوْمِ أَقْرؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةَ ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا ، وَلَا يُؤْمِنَنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ وَلَا يَقْعُدُ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) (رواه مسلم).

وفي قراءة القرآن الكريم : الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، فعن عائشة (رضي الله عنها) قالت : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبُرَّةِ وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ) (رواه مسلم).

وفي قصة مشروعية الأذان : حينما رأى عبد الله بن زيد (رضي الله عنه) الرؤيا ، قال له الرسول (صلى الله عليه وسلم) : (أَلْقِهِ عَلَى يَلَالٍ ، فَإِنَّهُ أُنْدَى مِنْكَ صَوْتًا ، فَلَمَّا أَدْنَى بِلَالٌ نَدِمَ عَبْدُ اللَّهِ فَاَمْرَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَأَقَامَ) (السنن الكبرى للبيهقي).

فالحرص على بلوغ الكمال في العمل قربة و طاعة لله (عز وجل) ، وإن لم ينتفع الإنسان بذلك في الدنيا لأنه فعل شيئاً يحبه الله تعالى ، فعن عاصم بن كليب الجرمي قال : حَدَّثَنِي أَبِي كَلِيبٌ أَنَّهُ شَهِدَ مَعَ أَبِيهِ جَنَازَةَ شَهِدَهَا رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَأَنَا غُلَامٌ أَعْقِلٌ وَأَفْهَمٌ ، فَانْتَهَى

بِالْجَنَازَةِ إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُمَكِّن لَهَا ، قَالَ فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ : (سَوْوَا لِحَدِّ هَذَا) حَتَّى ظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُ سُنَّةٌ ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ ، فَقَالَ : (أَمَا إِنَّ هَذَا لَا يَنْفَعُ الْمَيِّتَ وَلَا يَضُرُّهُ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مِنَ الْعَامِلِ إِذَا عَمِلَ أَنْ يُحْسِنَ) (شعب الإيمان) ، فهذا هو رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَأْمُرُ بِالِاتِّقَانِ فِي أَمْرٍ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ ، لَكِنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُرَبِّيَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْإِجَادَةِ وَالِاتِّقَانِ ، يَرِيدُ تَرْبِيَةَ الشَّخْصِيَّةِ الْمُسْلِمَةِ عَلَى تَلَمُّسِ طَرِيقِ الْكَمَالِ ، وَابْتِغَاءِ الْأَجْرِ عَلَى ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، يَقُولُ تَعَالَى : {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة: ١٠٥].

وعلوّ الهمة خلق يُورِدُ صاحبه موارد التعب والعناء ، ولكن التعب في سبيل الوصول إلى النهاية من معالي الأمور يشبه الدواء المرّ فيسيغه المريض كما يسيغ الشراب عذبا بارداً ، وعظيم الهمة قد يشتدّ حرصه على الشرف حتى لا يكاد يشعر بما يلاقه في سبيله من أنكاد وأكدار.

وهناك مجالات متنوعة ومتعددة تحتاج إلى علو همة العبد ، منها:

أولاً: العلم ، فالعلم أرفع مقام تطمح إليه الهمم ، وأشرف غاية تتسابق إليها الأمم ، تجعل الطالب يقاسي شدائد ، ويتحمل متاعب ، ولا يستهين بالشدائد إلا كبير الهمة ماضي العزيمة ، العلم من أسباب علو الهمة ، يرفع صاحبه عن الدنيا ، ويلزمه معالي الأمور ، ولقد ضرب الصحابة الكرام (رضوان الله عليهم) المثل الأعلى في علو الهمة وخاصة في طلب العلم ، وكان على رأسهم عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عباس (رضي الله عنهم) ، فعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) كان يتناوب مع جار له من الأنصار النزول إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: (... فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ...) (صحيح البخاري).

وها هو ابن عباس (رضي الله عنهما) يحدث عن علو همته في طلب العلم فيقول: (كَانَ يَبْلُغُنِي الْحَدِيثُ عَنِ الرَّجُلِ فَآتَى بَابَهُ وَهُوَ قَائِلٌ فَاتَّوَسَّدُ رِدَائِي عَلَى بَابِهِ يَسْفِي الرِّيحُ عَلَيَّ مِنَ التُّرَابِ فَيَخْرُجُ فَيَرَانِي) فَيَقُولُ: (يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مَا جَاءَ بِكَ؟ هَلَّا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتَيْكَ؟، فَأَقُولُ: لَأَ ، أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتَيْكَ) (المستدرک للحاكم).

لقد كان الواحد منهم يسافر الأسفار البعيدة من أجل تلقي مسألة من مسائل العلم ، يتحمل في سبيل ذلك الفقر والفاقة دون أن يضعف همته ، فهذا هو عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) مع فضله وسابقته وما تعلمه من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتمنى لو علم من الناس من هو أعلم منه ليرحل إليه ، يقول: (لَوْ أَعْلِمُ رَجُلًا أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهِ مِنِّي تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ لِأَتِيئُهُ) (المعجم الكبير للطبراني) ، فكادت هممهم تبلغ السماء رفعةً ، لذا قادوا الدنيا وتصدروا الأمم.

إن مثل هؤلاء من أصحاب الهمم العالية هم الذين يُعوَّلُ عليهم في حل المعضلات التي تعترض طريق الأوطان ، فهذا هو زيد بن ثابت (رضي الله عنه) الذي طلب منه النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) أن يتعلَّم لغة اليهود حتى يأمن شرهم ، فتعلمها في خمس عشرة ليلة ، فعن خارِجَةَ - يَعْنِي ابْنَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ - قَالَ : قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ (رضي الله عنه) أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَتَعَلَّمْتُ لَهُ كِتَابَ يَهُودَ وَقَالَ : (إِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَيَّ كِتَابِي). فَتَعَلَّمْتُهُ فَلَمْ يَمْرَبِي إِلَّا نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى حَدِّقْتُهُ فَكُنْتُ أَكْتُبُ لَهُ إِذَا كَتَبَ وَأَقْرَأُ لَهُ إِذَا كُتِبَ إِلَيْهِ [سنن أبي داود].

ثانيًا : العبادة ، إذ إنها حق الله تعالى على العباد ، وحقوق الله عز وجل أولى بالقضاء ، وعلو الهمة في العبادة مجال رحب لقوة العزيمة والتسابق في الخيرات ، فالمؤمن عندما يقوى إيمانه يقبل على طاعة الله تعالى برغبة جامحة ، فيكثر من النوافل والقربات ، وقد تمرُّ به فترات فتضعف همته وتخور عزمته ، فيقصر في أداء الواجبات.

وقد كان الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) يتعوذ بالله من العجز والكسل ، ويعلمنا علوَّ الهمة ويرشدنا إلى أن نبتغي الدرجات العلى ولا نرضى بالقليل من أعمال العبادة والأجر الأخرى ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (.. إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ) (رواه البخاري). فإذا أراد الإنسان الآخرة فليجتهد لها ، يقول تعالى : { وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا } [الإسراء: ١٩ - ٢١].

ولن نجد أفضل من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليكون قدوتنا وأسوتنا في علو همته في كل المجالات عامة ، ومجال العبادة خاصة ، فعلى الرغم من أن الله (عز وجل) غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، إلا أنه كان يقوم من الليل حتى تورمت قدماه ، وبلغ من همته (صلى الله عليه وسلم) في الجهاد ليعلي كلمة الدين ما يجعله يتمنى أن يقتل في سبيل الله ، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : سَمِعْتُ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ : (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي ، وَلَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ مَا تَخَلَّفَتْ عَنْ سَرِيَّةٍ تَغْرُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ أَحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ، ثُمَّ أَحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ ، ثُمَّ أَحْيَا ، ثُمَّ أُقْتَلُ) (صحيح البخاري).

ولقد فقه الصحابة (رضي الله عنهم) عن الله أمره ، وتدبروا في حقيقة الدنيا فاستوحشوا من فنتها وتجاغت جنوبهم عن مضاجعها ، وارتفعت هممتهم عن سفاسفها ، فلا تراهم إلا صوامين قوامين ، وقد حفلت تراجمهم بأخبار زاخرة تشيد بعلو هممتهم في التوبة والاستقامة ، وقوة عزيمتهم في العبادة والإخبات.

ثالثاً : العلم والسعي نحو تقدم الأمة ورفعة الوطن ، إنه مجال عظيم لا ينبغي للمسلم التقصير فيه ، فمن علامات التقدم والتحضر أن يصبح التنافس سمة بين الأفراد والفئات المجتمعية المتنوعة التي تهدف إلى خدمة الوطن ورقية والاجتهاد في البذل والتضحية من أجل حمايته ورفعة الأمة ، أما عندما تتهاوى الهمم في ذلك وتضعف العزائم تحلّ بالأمة الضعف حتى تصير غنيمة غيرها من الأمم ، وقد ضرب الصحابة (رضوان الله تعالى عليهم) مثلاً أعلى في علو الهمة التي تسهم في خدمة المجتمع ، فعن زيد بن أسلم (رضي الله عنه) عن أبيه ، قال : سمعتُ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول : أمرنا رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) أن نتصدقَ فوافق ذلك عندِي مالاً ، فقلتُ : اليومَ أسبقُ أبا بكرٍ إن سبقتهُ يوماً ، قال : فجئتُ بِنصفِ مالي ، فقال رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) : « ما أبقيتَ لأهلك؟ » قلتُ : مثلهُ ، وأتى أبو بكرٍ بكلِّ ما عندهُ ، فقال : « يا أبا بكرٍ ما أبقيتَ لأهلك؟ » قال : أبقيتُ لهمُ اللهَ ورسولهُ ، قلتُ : لا أسبقُهُ إلى شيءٍ أبداً . (رواه الترمذي).

إن التنافس الشريف يكشف عن معادن الناس وعلو نفوسهم ، وقوة عزائمهم ، كما يبين مواطن قصورهم ، فلا يستوي في الناس مبادرٌ إلى الخير ومتباطئٌ ، ومسبقٌ في الخير ومتثاقلٌ؟! يقول تعالى : { وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } [الحديد: ١٠].

إن علو الهمة من الصفات التي ينبغي أن يتصف بها المؤمن الذي يريد الله والدار الآخرة ، فالمؤمن الصادق الحريص على الخير ، لا تراه إلا صاحب همة عالية ، ومن علو همته لا يعرف العجز ولا يألف الكسل ؛ فإن ضعف الهمة يترتب عليه آثار سلبية ، فهو كارثة للأمة ، وهو سبب ضياع قوتها ، وتفريق كلمتها ، وتمزيق وحدتها ، وتداعي الأمم عليها ونهب خيراتها ، وهو الأمر الذي حذر منه النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فعن ثوبان (رضي الله عنه) قال : قال رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) : (يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا) ، فقال قائلٌ : وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ، قال : (بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَيَبْنِزُ عَنَّا اللَّهُ

مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةِ مِنْكُمْ وَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ) ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا الْوَهْنُ ؟ قَالَ : (حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ) (رواه أبو داود).

وفي الختام هذه رسالة نوجهها إلى كل مسلم: أن يغرّس في نفوس أبنائه منذ نعومة أظفارهم هذا الخلق الرفيع ، وهذه القيمة العظمى (علو الهمة) كي تؤتي ثمارها في المستقبل رجالاً أشداء ، وجيلاً معافى في بدنه وعقله ، ينهض بالأمة ويقبلها من العثرات ، وحرّاساً للعقيدة والوطن ، مؤكدين على المشاركة الإيجابية في جميع مناحي الحياة ، ومنها المشاركة الإيجابية في جميع الاستحقاقات الوطنية.

إن ضعف الهمم كارثة الكوارث على المجتمع ، بل وعلى الأمة بأسرها ، فأيقظ هممتك وقوّ عزيمتك قبل أن ترحل عن الحياة وما بلغت فيها شأنًا ، وضع لنفسك هدفًا أن تكون كفلانٍ من العظماء ، أو كفلانٍ من العلماء ، أو كفلانٍ من العباد الصالحين ، فبعلو الهمم تبني الأمم ، وبضعف الهمم تسقط الأمم.